الفقر مقتولاً

كيف إنتصر العالم الإقتصادي
محمد يونس
على فقر بلاده المدقع

د . مصطفى عطية جمعة

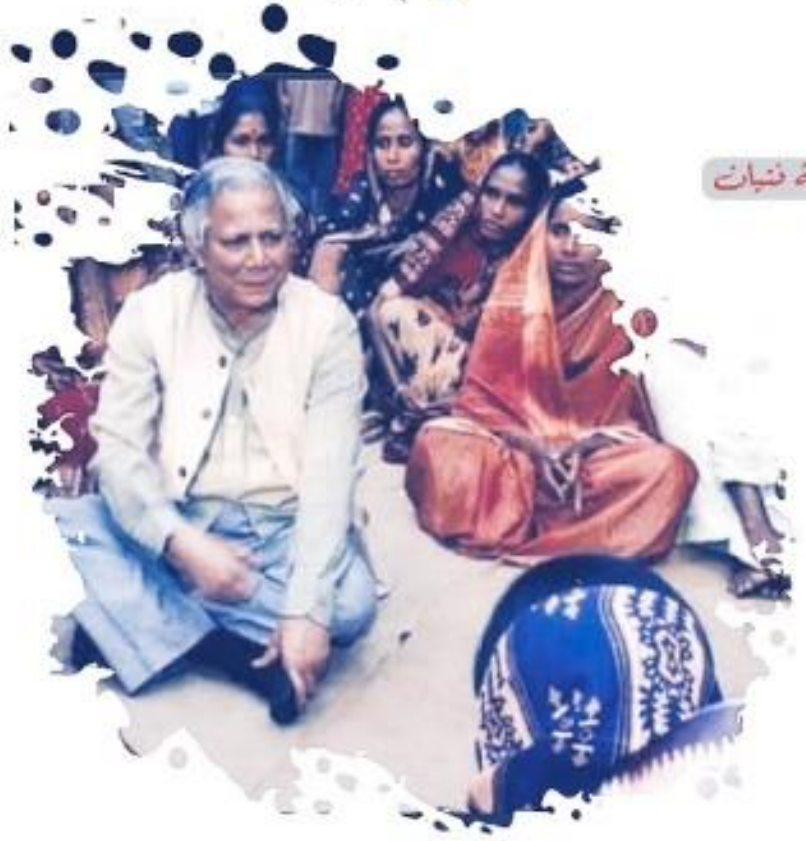

قصة نجاح

الفقر مقتولا

❖ اسم العمل: الفقر مقتولا

❖ الكاتب: د. مصطفى عطية جمعة

❖ إخراج داخلي: سليل الفراعنــة

❖تصميم الغلاف: عبير فاروق & أمل رضوان

❖ رقم الإيداع: 8501 / 2023

❖ الترقيم الدولي: 978-977-87413-1-5

(جميع الحقوق محفوظة للناشر وأي انتهاك سيعرض صاحبه للمساءلة القانونية
هذه النسخة مخصصة للقراءة فقط، ولا يجوز إعادة طبعها أو نسخها أو نشرها إلا بعد
الحصول على إذن كتابي من الناشر)

متون
المتقف
للنشر والتوزيع

خالد عدلي
00201002688188
info.mothakf@gmail.com

قصة للفتيان

الفقر مقتولا

كيف انتصر العالم الاقتصادي محمد يونس على فقر بلاده المدقع

د. مصطفى عطية جمعة

متون المثقف
للنشر والتوزيع

"عندما تُلهمك غاية عظيمة أو مشروع خارق، فإن أفكارك ستحطم قيودها، وسيتجاوز عقلك الحدود، وستجد نفسك في عالم جديد، مدهش وعظيم".

البروفسور محمد يونس (ولد ١٩٤٠)

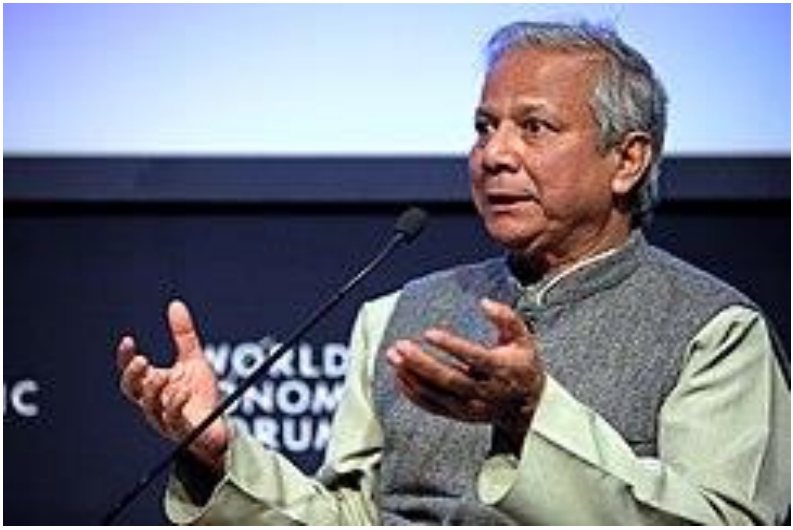

إنه يوم العاشر من ديسمبر العام ٢٠٠٦، كان نهارا أوروبيا مكتظا بالغيوم، بأجواء شتائية باردة، في مدينة أوسلو عاصمة النرويج، حيث احتشدت الكاميرات ومراسلو الصحافة ووكالات الأنباء والفضائيات؛ مترقبين لحظة التتويج السنوية لاحتفالات جائزة نوبل؛ أرفع الجوائز العالمية التي يتيه فخرا كلُّ من حصل عليها.

يتزاحم المصورون للفوز بلقطات فريدة، والصحافيون يتسابقون لأخذ أحاديث خاصة يدلي بها الفائزون. القاعة المكتظة بالحضور النخبوي، كبار الشخصيات السياسية والاقتصادية والعلمية من أنحاء العالم، بذلاتهم أنيقة فاخرة، رقابهم مزدانة بربطات العنق الفخمة، كلهم في عجب، بعدما تداولوا أسماء الفائزين؛ فجائزة السلام هذا العام، تُمنح لشخصية اقتصادية وليست سياسية، إنها لعالم الاقتصاد المسلم البنغالي، البروفسور محمد يونس، وللبنك الذي أنشأه "بنك غرامين"، أو بنك القرية، الذي إذا ذُكِرَ لهجت الألسنة بالدعاء.

بدأ الحفل، يتوسط الملك خشبة المسرح، وها هو مقدم الحفل يقف خلف مكبر الصوت، يقرأ بتؤدة حيثيات الترشيح، وأسباب الفوز لكل شخصية، قبل أن يرتقي صاحبها منصة التكريم.

تلك اللحظة التي انتظرها ملايين الفقراء المتعففين في بنغلاديش وسائر أنحاء العالم، هؤلاء الذين أضحوا في عيش كريم بسبب محمد يونس. يقول مقدم الحفل معللا فوز البروفسور بجائزة السلام: " لا سلام دائم من دون أن يجد الناس سبيلا لكسر طوق الفقر، والقروض المتناهية الصغر، هي إحدى تلك السبل، كما أن التنمية من أسفل تخدم في تحقيق التقدم على طريق الديمقراطية وحقوق الإنسان".

يصافح محمد يونس الملك، متسلما درع تكريمه، ثم ترنو عيناه إلى الكراسي المكتظة، فيتمتم حامدا ربه، شاكرا نعمه. العيون المتصلبة حول الشاشات في العالم؛ تبتهل إلى الله سبحانه أن يثيب هذا الاقتصادي الفذ عظيم الأجر، فقد بدّل حياتهم عملا بعد تسول، ونعيما بعد شقاء.

****

(١)

صياح الديكة يوقظ الطفل محمد يونس، يؤدي طقوسه الصباحية، وعينا أمه تراقبانه: يؤدي الصلاة، يرتدي ملابس المدرسة، يشرب الحليب، ثم يحمل حقيبته، مقبِّلاً يد أمه "صوفيا خاتون"، متعلقا بيد شقيقه الأكبر، فكما عوّدتهما أمهما أن لا يغدوا إلى مدرستهما إلا وهما متشابكا الأيدي.

ينزل الشقيقان على الدرجِ إلى الشارع، يتطلعان إلى والدهما "دولا ميا" الذي يتأهب لفتح محله للذهب والمجوهرات أسفل منزله، فهو من أشهر صائغي المدينة.

اعتاد الأب أن يصلي الفجر، ثم يمكث في المسجد لقراءة الأدعية الصباحية، وتلاوة آيات من القرآن الكريم، حتى تشرق الشمس، وترتفع إلى كبد السماء، فيؤدي صلاة الضحى، ثم يغادر إلى منزله، فيجد الحركة تدبّ في أسرته: زوجته تعدّ الإفطار، أبناؤه يستعدون ليوم دراسي، أما الصغار منهم، فهم راكضون وراء أشقائهم، يملأون البيت صخبا ومرحا وضحكا.

دائما ما يتمتم الأب أمام أولاده عبارات الحمد لله تعالى، على ما منحه من نعم، فزوجته صوفيا سيدة صالحة، وقد رزقه الله منها تسعة من الأولاد، كان محمد ثالثهم في الترتيب، كلهم حريصون على الدراسة، بتوصية أمهم التي أصرّت أن يتعلموا، حتى الجامعة، فالعلم كما تقول مرضاة لله، مجلبة للخير.

وهذا ما وعاه صغيرها محمد، العاشق المتيم لصوت أمه في صلواتها وحكمتها، فكان التفوق ديدنه طيلة سني دراسته، مدركا أن عقلا بلا معرفة، يعني فراغا ومفسدة.

يتجه محمد إلى مدرسته "لامابازار الابتدائية"، سائرا في طرقات مدينته "شيتاغونغ"، التي تقع في أقصى دولة بنغلاديش، وهي المدينة الأكبر بعد العاصمة "دكا"، كما أنها الميناء الرئيسي للبلاد، وتقع قريبا من الحدود مع ميانمار والهند.

طرقات المدينة ضيقة، ولكن الحركة لا تهدأ فيها منذ الصباح الباكر، وتستمر إلى ما بعد منتصف الليل، يتطلع محمد إلى العمال البسطاء المحتشدين عند الميناء، مترقبين

عملا، أي عمل، كي يعودوا إلى أكواخهم البسيطة في أطراف المدينة، حاملين بعضا من الخبز والخضراوات، داعين الله أن يكون رزق غدهم مثل يومهم.

بعيد الظهيرة، تكتظ شوارع المدينة بالتلاميذ العائدين من مدارسهم، ما إن يصل محمد وشقيقه إلى البيت، حتى يشاهدا أباهما، يغلق محله، مستعدا للصعود إلى المنزل، فموعد غدائه وراحته قد أزف، يداعبهما الأب، فيتعلق به محمد، ومع أولى خطواتهم في مدخل البيت، يفسحون المكان لعدد من الفقراء من النساء والأطفال، يهبطون السلالم، حاملين لفائف بها خيرات، أو تقبض أيديهم على حفنة مال.

"هؤلاء الفقراء جالبو الحسنات لنا ".

تلك الجملة التي ترددها أمه دائما، وقد ترسخت كلماتها في وعي الطفل محمد، وجعلته يبتسم محييا زائري بيتهم، الذين لا تردهم أمه قط، وهي التي توصي أولادها دوما: "عاهدوني يا أبنائي، أن لا تكسروا خاطر مسكين يسألكم".

ستظل كلمات الأم ترنّ في أذنيّ ابنها محمد، وهو يجول القرى في شبابه وشيبته، يحنو على الفقير الصغير، ويُنصت لأنّات المسكين الكبير، ويلهج بالدعاء لكل مستجير.

****

ما العمر إلا سنوات متلاحقة، والذكي من يجعلها مرقاةً لمجده، بأن يتعلم ويتفوق، ويكون إنسانا ناجحا في حياته، وهو ما تم مع محمد يونس، عندما أنهى دراسته الجامعية.

و كان يوما بهيجا؛ عندما جاور محمد أباه وأشقاءه، في جلستهم في حفل تخرجه في كلية الاقتصاد بجامعة شيتاغونغ، العام ١٩٦١، وتذكروا جميعا الأم "صوفيا خاتون"، التي فارقتهم مبكرا، ولكن وصيتها ما زالت حية في أعماقهم، فتمتمت ألسنتهم أدعية الرحمة عليها، والدعاء بالجنات لها.

مرت سنون قليلة، وهاهو محمد ينال درجة الماجستير في جامعته، ويتم تعيينه محاضرا في نفس كليته، يدرّس علوم الاقتصاد، فصار أستاذا جامعيا، ومع ذلك لم يخدعه بريق وظيفته الأكاديمية، عن مراقبة الحياة وأحوال الناس خارج

أسوار جامعته، حيث الفقراء يفترشون النواصي والأرصفة، وأكثرهم متعففون، يترقبون عملا يحصلون منه على المال لجلب القوت لأولادهم. لقد أدرك محمد أن مشكلة أبناء وطنه لا يجدون العمل، ليتكسبوا منه المال الحلال.

قال محمد ساعتها لرفاقه في الجامعة:

- لن أكتفي بالمحاضرات النظرية، فتلك علوم جافة، وإن زادت كتبها، وتضخمت مجلداتها، سأقيم مشروعا، أنقذ الفقراء من البطالة.

وهكذا عزم هذا الأستاذ الأكاديمي على إنشاء مشروع يكون وسيلة لتشغيل الفقراء، فافتتح مصنعا للتغليف والتعبئة، وتوجّب عليه أن يقسّم وقته بين الجامعة والمصنع، ثم يلوذ في آخر يومه بشقته الصغيرة، فيجد طفلته ساهرة، مشتاقة لحضن أبيها ومداعباته، يضاحكها ويلاعبها ويطعمها، حتى تغمض عينيها بين ذراعيه، فيرنو إلى زوجته وقد أعياه تعب نهاره، فتكون ابتسامتها بلسما، فيصفو قلبه، وتهنأ نفسه، وينام قرير العين، ليبدأ في الصباح يوما جديدا.

سنوات خمس تتابعت على محمد، وقد قسّم وقته بين الجامعة، ومصنعه، حتى تفاجأ بخطاب على مكتبه، في صباح يوم اشتدت حرارته العام ١٩٦٥.

كان الخطاب من جامعة "فاندربيلت" في الولايات المتحدة، تنبّئه أسطرُه بقبوله طالبا للدكتوراه في برنامج الدراسات العليا، إنه حلم طالما انتظره محمد، وفي خلال أشهر، عليه أن يغادر وطنه.

فؤاده يتراقص فرحا، اليوم تتحقق أمنيته بالسفر للحصول على درجة الدكتوراه، وعليه البحث عمن سيتولى إدارة مصنعه الصغير، حتى لا يتشرد العمّال الفقراء. يستحضر صورتهم، إذا أُغلِق المصنع، فحتما ستكون عيونهم منكسرة، وأيديهم خاوية.

****

لم تخدع محمد بهرجة الحياة في أمريكا، ولن يتمسك بالبقاء فيها، بعد سنوات خمس قضاها، حصل في نهايتها على الدرجة، وذلك في حفل مناقشة رسالة الدكتوراه، مرتديا الروب

الفاخر، وقد أثنى أعضاء لجنة المناقشة على ما أبدعه في أطروحته، وما ذكره عن كيفية معالجة الفقر.

عليه العودة إلى وطنه بنغلاديش، الذي تحرر العام ١٩٧١ من سيطرة باكستان الشرقية. يتقطع قلبه وهو يشاهد وطنه الخارج من الحرب؛ مثخنا بالجراح، والثكلى، والأيتام، وها هي الأمهات الأرامل الفقيرات، اللائي فقدن أزواجهن في نير القتال، يحملن أطفالهن، ويجوبن شوارع العاصمة دكا، قادمات من القرى، يفترشن الأرصفة، يرضين بالفتات، غاية ما يحلمن به طعام ونوم وأمان، فما أكثر ذئاب البشر المتربصين بالضعاف والمساكين.

يسير محمد يونس في ردهات جامعته التي تخرّج فيها، ينظر إلى الطلاب حوله، ويستعد لتدريسهم علوم الاقتصاد، وحزن كبير يملأ نفسه، إزاء مظاهر الفقر المنتشرة في بلاده.

مرت شهور قليلة ووجد محمد مَن يتواصل معه من الحكومة البنغلاديشية، ليكون عضوا في لجنة التخطيط. فرح محمد كثيرا، فربما تكون هذه فرصته، كي يصبح جزءا من مخططي

السياسات وصنّاع القرارات في الحكومة، من أجل البحث في كيفية علاج الفقر المدقع. فقد أراد محمد أن يكون التغيير من أعلى، ليصل إلى أعضاء الحكومة أنفسهم، من الوزراء والمسؤولين الكبار، فقد رأى تخبطا منهم، وهم يصدرون قوانين اقتصادية غير مدروسة، تؤدي إلى صراعات بين الأغنياء، وتزيد الأعباء المالية على الفقراء، ويقف وراء هذه القرارات أصحاب المصالح والمنتفعون. والنتيجة موارد الوطن مهدرة، وشبابه توّاقون إلى الهجرة، بحرا أو برا، لعلهم يجدون ما يسد رمقهم.

****

كان محمد يقف أمام طلابه في مدرجات الجامعة، شارحا نظريات الاقتصاد الحديثة التي خَبرَها ودرسها بعمق، إبان اغترابه الأمريكي، يبسّطها بأسلوب سلس، مؤكدا لهم أن العبرة ليست في تعدد المصطلحات وتنوّع المنهجيات، وإنما بما يفيد المواطن البسيط، ويسد حاجاته، ويجعله في غنى عن التسول، ويعلّم أبناء الوطن كيف يستفيدون من موارد بلادهم وخيراتها.

وعندما كان محمد يحضر اجتماعات لجان التخطيط الاقتصادي في حكومة السياسي "نور الإسلام"، كان يتفحص الملفات الورقية المنجزة، والمتراكمة في كل مرة بوصفها حصيلة عمل أعضاء اللجنة، ويقارن بين الكلام المنمق الذي يتفوه به الاقتصاديون في اجتماعاتهم، والوعود المنثالة على ألسنة السياسيين، ورجال الحكومة، وبين أحوال الناس في الشوارع، فقلةُ الغذاء تفتك بأجساد الأطفال، فكأنهم عظام يكسوها جلدٌ، ووجوه جافة الملامح، وعيون جاحظة، خاصة في سنوات الجفاف العام ١٩٧٤، فقد عمّ الجوع، وتقاتل الناس على كسرات الخبز.

دوما ما كان محمد يونس يردد بمقولة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): "لو كان الفقر رجلا لقتلْتُه"؛ وهو يسير في الشوارع، حاملا معه لفائف الخبز والطعام، ليقدّمها إلى مَن يلقاه متسولا على الأرصفة، فالأطفال يبسطون كفوفهم، طامعين في كسراتٍ تُبقي أنفاسهم تتردد بين جنبات صدورهم بعظامها البارزة، قبل أن يموتوا جوعا.

كم كانت سنوات المجاعة قاسية؛ أدمت قلب محمد يونس، فهناك مئات الآلاف ماتوا جوعا (حوالي مليون ونصف)، وتضاءلت جهود المتطوعين لإنقاذ الجوعى.

أدرك محمد أن حل الأزمة ليس في المساعدات والصدقات؛ التي قد تساعد الفقير ساعات أو أياما، ثم يمدّ يديه من جديد.

لذا، عندما كان يحاضر أمام طلابه في الجامعة، ويشرح لهم مفاهيم الاقتصاد الإسلامي، كان يستحضر حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم):" ما أَكَلَ أَحَدٌ طَعامًا قَطُّ، خَيْرًا مِن أنْ يَأْكُلَ مِن عَمَلِ يَدِهِ"، فيقاطعه طالب بأسى: "وكيف نعالج الجوع في بلادنا؟"

الصمت يغلّف قسمات وجه محمد يونس، وهو يتفرس في وجه طالبه السائل، ثم يردّ ببطء: "صدقتَ يا عزيزي، تظل نظريات الاقتصاد كلمات جوفاء، ما دام الفقر قاتلا لشعبنا".

آثر محمد السير على قدميه وهو عائد إلى بيته، فقد عاهد نفسه ألا يمتلك سيارة، في بلد يموت فيه الناس جوعا. يعتصره

الوجع، ومساحات شاسعة من الأراضي الصالحة للزراعة تمتد على مرمى البصر، ولا تجد مَن يزرعها، والفلاحون فقراء، لا رؤوس أموال تساعدهم لشراء الحبوب والتقاوي، وأدوات الري، والبنوك أشد قسوة، لا تعطي قروضا إلا لمن يملك أصولا تضمن سداده، فلا يجدون أمامهم إلا فئة من المرابين الذين يقرضونهم بفائدة مرتفعة.

****

(٢)

هتف محمد يونس في طلابه، بعدما وضع نظارته على الطاولة، ونأى عن الأوراق:

- هيا نذهب جميعا إلى القرى، نبحث كيف نعين الفقراء.
- ماذا تريد منا يا أستاذنا؟
- لنكوّنْ فريقا منكم، نزور إحدى القرى الأكثر فقرا، وندرس أحوالها.

سادت همهمة بين الطلاب، أعقبتها أيادٍ مرفوعة راغبة في المشاركة، وقررا أن ينتظموا في فريق، وتعاهدوا أن يكونوا مع أستاذهم، في سعيه الدؤوب.

قال البروفسور بحماسة:

- ثقوا أنكم تقومون بأسمى رسالة في الوجود، تثابون عليها من الله، ثم ترفعون شأن وطنكم.

****

مشوا في الطرقات الضيقة في قرية "جوربا" الواقعة بالقرب من مدينة شيتاغونغ؛ بيوتها الطينية تكاد تتداعى على قاطنيها، إذا غزرت الأمطار، أو اشتدت الفيضانات، أو كان في الأرض اهتزازات. الصغار يركضون في الشوارع، أمارات الفقر في وجوههم البريئة، وملابسهم البالية، ومع ذلك هم لاهون في ألعابهم الجماعية، أما أمهاتهم وآباؤهم فهم بين همٍ وكدٍ، يقضون نهارهم في أعمال وحرف بسيطة، لعلهم يظفرون مع غروب الشمس بما يؤمّن عشاء أولادهم.

توقّف البروفسور أمام امرأة جالسة على قارعة الطريق، تصنع كراسي الخيزران، العوز والضنك تنطق بهما ملامحها وثيابها. تطلع البروفسور إلى مهارتها في تقطيع جذوع شجر البامبو، إلى أخشاب وعصي، ثم تثبّتها بمسامير، وسرعان ما يتشكل الكرسي، ويأخذ مكانه بجانب كراس أخرى تمّ صنعُها وتكويمها؛ في انتظار تاجر يأتي يأتي لشرائها ليبيعها في المدينة، أو قد يشتريها بعض أهل القرية لاستعمالهم في بيوتهم.

ألقى السلام عليها، نظرت إليه ساهمة، وانتظرت أن يتفوه بطلبه إذا رغب في شراء أحد الكراسي، إلا أنه خاطبها برقة:

– أراكِ ماهرة في صناعتكِ، كراسيكِ شكلها جميل، وواضح أنها متينة.

أحنت رأسها شاكرة، ولاذت بصمتها، منتظرة أن يبادر بالشراء، ولكن البروفسور سألها متعجبا:

– شغلكِ جيد، ومع ذلك أرى أنك لا تربحين!

ابتسمت بحزن، وخفضت عينيها، وقالت:

– لا فائدة من الشغل مع عسف المرابين الذين يقرضوننا.

انتبه محمد يونس لملاحظتها، فاستفسر منها:

– ماذا تقصدين يا أختي؟ اشرحي لي.

– الأمر لا يحتاج إلى شرح. أنا أم لثلاثة أطفال، وعمري ٢١ سنة، وأعمل في صنع الكراسي لأطعم أطفالي، اضطررت لاقتراض خمس تاكات (الدولار يساوي ٨٤

تاكا)، من أجل شراء خشب البامبو، وأضطر أن أعمل اثنتي عشرة ساعة يوميا، حتى أسدد القرض.

- ما الفائدة التي يحصل عليها المرابي؟
- عشرة بالمئة أسبوعيا، أي حوالي ٤٠ ٪ شهريا، وأحتاج إلى سنتين، كي أسدد هذا القرض، وعندما أتعثر، تتضاعف عليّ الفائدة، وقد يتم سجني إن لم أوفِ بالدَّين، وهناك من قضوا أعمارهم، يسددون الديون المتراكمة عليهم، وفي النهاية سُجِنوا أيضا.

تطلع لها البروفسور بأسى، وتبادل النظرات مع طلابه الذين أطرقوا صامتين، لقد وقفوا على جزء من المأساة، ربا فاحش، وتهديد دائم بالسجن، واستغلال بشع لجهد هؤلاء البسطاء وعرقهم.

تركوا السيدة المسكينة منكبةً على عملها، وبالقرب منها أطفالها الثلاثة، ينتظرون أن تبيع بعض الكراسي لتشتري أرغفة من الخبز، وبعض الجبن، وتدّخر ما تبقى من التاكات، لتعطيها للمرابي عندما يمرّ عليها في نهاية اليوم. واضح أن زوجها غائب، فلم تشر إليه في حديثها.

نظراتها حيرى، والقلق باد عليها، ودائما تتمتم بالدعاء أن يرزقها الله.

ارتكن محمد جانبا، بالقرب من بعض الحقول، وهمس لطلابه:

- هنا لُبّ الأزمة.
- كيف يا سعادة البروفسور؟
- أمامنا فقراء يكدحون، ومرابون يستغلون، ولا هامش ربح يتوافر، كي يستطيع الفقراء تطوير صناعتهم، أو تحسين حياتهم.
- ماذا تقترح علينا؟

قال البروفيسور محمد يونس:

- أطلب منكم أولا، أن تسيروا في جنبات القرية، وتبحثوا عن حالات مشابهة، ونلتقي هنا بعد ساعتين.

****

أنصت البروفسور لطلابه، بعدما عادوا من جولاتهم في القرية، وجاءت كلماتهم تكمل مشهد الأزمة التي يعيشها سكان القرية، تتابعت كلمات الطلاب:

- هناك عشرات العمال يكدّون ليلا ونهارا، ولا يتبقى لأولادهم إلا الفتات.
- وهناك ٤٢ امرأة، هن أمهات بلا أزواج، يعيلن أطفالا.
- كلهن يعملن في حرف بسيطة، ويحتاجن إلى قروض بسيطة فقط.
- مجمل ما يحتاجون إليه من قروض هو (٨٥٦) تاكا، أي حوالي ٢٧ دولارا فقط.

سألهم محمد يونس بتؤدة:

- ماذا لو قمنا بدفع هذه المبالغ لهم، ولا نشترط عليهم فوائد أو حتى فترة زمنية محددة للسداد.
- كيف يا أستاذنا؟
- نقدم لهم المبالغ المطلوبة، وفي هذه الحالة ستكون الأرباح لهم، يعملون، ثم يسددون القرض متى

ادخروه، وبعدها يتكون رأس مال خاص لكل واحد منهم، ليواصل أعماله به.

صمتوا جميعا، الفكرة بسيطة، وهي حل عملي للأزمة. هتف أحد الطلاب:

- في هذه الحالة ستكون الفائدة صفرا!
- نعم، ونبلغهم من البداية أنهم سيعملون لتسديد أصل القرض بدون فائدة.

هتف طالب آخر:

- هذا لب الاقتصاد الإسلامي الذي درّسته لنا سعادة البروفسور، بأن يكون القرض حسنا.
- بالضبط، نلتقي هنا غدا، وننفذ فكرتنا، ثم ندرس آثارها.

****

في اليوم التالي، وفي ساحة القرية، افترشت الأرض نسوة قرويات، حول البروفيسور وطلابه، وقد بدا الانشراح على وجوههن، وهن يتأملن طيبة هذا الرجل، وجديته، وهو يخرج

المال، ويتأهب لتوزيعه عليهن، ويخبرهن أن هذا المال قرض حسن، وعليهن فقط الكد، حتى استيفائه في الرد، وأردف:

- سنمنح كل واحدة، ما تريد من مال، لتشتري المواد الخام لمصنوعاتها.

سألته إحداهن:

- هذا القرض للمصنوعات فقط؟ أنا تاجرة!

ابتسم البروفسور وقال:

- هذا القرض لكل من تعمل، في الصناعة أو للتجارة، اشتري به يا أختي ما تشائين.

سألته أخرى غير مستوعبة ما قاله سلفا:

- وكم الفائدة التي تريدها؟ وهل ستكون يومية أم شهرية؟
- كما أخبرتكن، لا توجد فائدة.
- تعطينا قرضا دون أن تستفيد!؟
- بالضبط، أنا لن أستفيد شيئا، وإنما أريد إفادتكن، لأنني أبتغي الأجر من الله.

تبادلت النسوة النظرات بينهن، غير مصدقات، ولسان حالهن أن هذا ليس مرابيا، فسألته إحداهن:

- هل هو صدقة؟
- لا، إنه قرض، وعليكن سداده.
- متى؟
- متى شئتم؟ عندما تعملن به، وتربحن، سددن القرض، رأس المال فقط.

هتفت به إحدى السيدات، وكانت واقفة بعيدة بعض الشيء:

- أنت تعطينا قرضا، بلا فوائد، ونسدده متى أردنا، إذن أنت تريد ضمانات، ونحن فقيرات لا نملك أراضي ولا بيوتا، ولا أثاثا.

ابتسم البروفسور، وقال:

- غير مطلوب أية ضمانات، يكفي أن تسجلن أسماءكن في الكشوف معنا، وتحصلن على المال.
- وكيف تضمن حقك إذن؟

- حقي مضمون يا أختي، فقط سيمرّ عليكن طلابي كل أسبوع يتابعون معكن أعمالكن. هيا، كل واحدة تسجل ما تريده من مال، وتكتب ما ستقوم به من عمل.

لم تصدق النسوة ما يشاهدنه، فالمال في كفوفهن، بدون فوائد، وبدون فترة زمنية، تصاعدت الأدعية للبروفسور محمد وطلابه، الذين وقفوا سعداء لأنهم أسعدوا هؤلاء الفقيرات.

****

أسابيع قليلة مرّت، وعندما اجتمع البروفسور مع طلابه في مكتبه بالجامعة، فوجئ بما لم يتوقعه، الطلاب ينتفضون حماسة وهمةً، وهم يبشرونه بأصوات متداخلة، فأشار عليهم أن يهدأوا، ويتكلموا بشكل مرتب، فتحدثوا متتابعين وفق مجلسهم:

- التجربة ناجحة، القرويات يعملن وهن مطمئنات.
- تحولت بيوتهن إلى مصانع صغيرة.

- يصنعن الكراسي، والزبد والجبن، ويغزلن خيوط الصوف.
- بعضهن جمعن بين التجارة والصناعة.

ابتسم البروفسور وتساءل:

- هل هناك مُسرفات أو غير مسؤولات فيهن؟

أجابوا جميعا في صوت واحد:

- كلهن شاكراتٌ الله أنهن انعتقن من جشع المرابين.

نظر البروفسور إلى طالب، كان صامتا طوال الجلسة، وسأله:

- لماذا أنت صامت يا بشير؟ هل لاحظت أمرا سلبيا؟

أجابه بشير مبتسما، وهو يقدم بعض المال:

- هذه سيدة، استطاعت أن تجمع رأس المال، وتسدده في الأسابيع القليلة الماضية، وهناك أخريات سيسددن بعد أسبوع، فقد ربحن، والخير فاض بهن.

سكت بشير، ثم واصل:

- وقد لاحظت في جولاتي يا أستاذي، أنهن سعيدات، وأولادهن سعداء، والبركة حلّت في حياتهن.

نظر إليه البروفسور محمد، وتلا قوله تعالى: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا}(البقرة، ٢٧٥)

ثم ترجم معناها إلى طلابه، وأردف:

- هناك مفاجأة سارة لكم.
- خيرا يا أستاذنا.

بثقة وابتسامة واسعة، قال البروفيسور:

- لقد تحدثتُ مع إدارة الكلية بخصوص برنامجي هذا، واقترحتُ عليهم أن يتم منحكم شهادة أكاديمية في التنمية الاقتصادية الريفية، جنبا إلى جنب مع شهاداتكم الجامعية، أي أن عملكم هذا، ستحصلون به على شهادة تفيدكم في مستقبلكم العلمي والمهني.

تبادل الطلاب النظرات مبتهجين؛ فأستاذهم يفاجئهم دوما ويكافئهم على جهودهم، والغريب أنه كان يذهب بمفرده، ودون أن يعلمهم ليتابع أعمال النسوة في القرية، ويسجل بنفسه مراحل تكسبهن من أعمالهن، حتى يكون على بيّنة وعلم بشكل مستمر بمدى نجاح مشروعه.

****

الاجتماع التالي، كان بعد أسبوعين، وقد حمل نبأ سعيدًا جديدا، حيث تفاجأ البروفسور باسترداد غالبية رأس المال الذي استثمره في مشروعات القرية، بأن وضعه طلابه على الطاولة أمامه، مرفقا بكشوف مفصلة عن أسماء النساء، مَن دفعتْ على أقساط، ومَن آثرت أن تسدد في فترة زمنية لاحقة، وكانت المفاجأة، في كلام طلابه، أنهم أخبروه:

لقد تحسنت ظروف حياة هؤلاء النسوة بالتدريج، وتحسنت أيضا وجبات طعامهم المقدمة لأسرهن، وأيضا تغير أثاث بيوتهن، وعزمن على مواصلة مشاريعهن الناجحة.

صمت البروفسور متفكرا، ثم تساءل:

- نريد مقترحات للتطوير، فإذا كانت التجربة قد نجحت في قرية جوبرا، فإننا نحتاج إلى تعميمها في قرى أخرى، إن الفقر يفتك بشعبنا.

بوغت الطلاب من طلب البروفسور، وأدركوا أنه عاد إلى طريقته المفضلة في التدريس، ألا وهي طريقة العصف الذهني، إنه يدعوهم إلى التفكر بشكل أوسع، لمواجهة حالات الفقر في عموم الوطن.

الصمت يخيّم على الوجوه، فهتف بهم البروفسور، واضعا خطة عمل، يتحركون في ضوئها:

- أولا أريد منكم أن تذهبوا إلى قرى أخرى، يمكن تطبيق التجربة عليها، وأنتم تعلمون أن نسبة الفقر في الريف عالية.
- بالفعل، الفقراء ما أكثرهم في الريف!.

واصل البروفيسور وصاياه:

- ثانيا: نريد أن نبحث عن فرص أخرى للاستثمار، جنبا إلى جنب مع الحرف البسيطة.

ردوا عليه بحماسة، وحيرة:

- هذا يحتاج إلى بحث وتفكير سعادة البروفيسور.
- وأنا في انتظاركم.

(٣)

كعادته، لم يكتف محمد يونس بتكليف طلابه، فقد آثر الذهاب بنفسه إلى القرى القريبة والبعيدة، ليشاهد المعاناة عن قرب، ويرصد سبل الحل.

كان الوضع في هذه القرى مأساويا، فالزراعة قليلة، وشدة الفقر أضعفت صحة الناس، فلم يعودوا قادرين على الأعمال الشاقة، كان البروفيسور يدوّن كل ما يراه، ويسترجع نظريات الاقتصاد التي درسها، واكتشف أنها نظريات تتحدث عن بيئات جاذبة للاستثمار، وفرص العمل لأصحاب رؤوس الأموال، وظل السؤال معه: وماذا نفعل مع هؤلاء المعدمين بلا مال؟

ظل السؤال معه، يقلّبه في رأسه، وهو في المواصلات العامة، أو سائر على قدميه، يفكر بعمق، ومن منظور الفكر الاقتصادي، كي يؤسس فكرا اقتصاديا جديدا، أساسه أن العمل سبيل الوطن والشعب للتنمية.

***

تنافس الطلاب في تقديم مقترحات مكتوبة، مستقاةً من جولاتهم الميدانية في القرى، وقد عكف البروفيسور على دراستها بعناية. وفي الاجتماع الدوري معهم؛ أنصت الطلاب للبروفيسور، الذي أسهب قائلا:

- لقد قرأتُ بدقة كل ما ذكرتموه في أوراقكم، من مقترحات، وكلها ترتبط بالمشكلات التي يعانيها الفقراء، ومجالات العمل التي يمكن أن يقوموا بها، ولذا، لابد أن نرتب أفكارنا، ونصوغ نظرية نعمل في ضوئها، حتى نكون على هدى وبيّنة فيما سنقوم به.

رفع أحد الطلاب يده مقترِحًا:

- يكفينا أن نطبق تجربة قرية جوربا، فقد خرجنا ببرنامج عمل، واضح ومحدد، ومعنا رأس المال، الذي يمكن أن ينمو ويتسع بالمنح والهبات.

فردّ عليه البروفيسور:

- نحن باحثون في الاقتصاد، وساعون إلى انتشال أكثر من نصف مجتمعنا من هوّة الفقر السحيق، ونريد أن

يكون عملنا له فلسفة واضحة، يستلهمها كل مَن هو راغب في الخير.

- وما هي رؤيتك يا أستاذنا؟
- لقد سألت الله تعالى أن يلهمني الرشد، ثم فكّرت كثيرا في خطة برنامجنا الاقتصادي، وهداني الله سبحانه إلى أربعة أسس علينا أن نضعها في حسباننا.

سكت البروفسور، وتفرّس في وجوه طلابه، الذين آثروا الصمت تلهفا لسماع أستاذهم، فأكمل الأستاذ حديثه، والذي جاء مرتبا في نقاط:

- الأساس الأول: إن الائتمان حق أساسي، فمن حق الفقير أن يحصل على القرض الذي يريده إذا أراد أن يقيم مشروعا صغيرا.

والأساس الثاني: لابد من وجود رأس المال الاجتماعي، الذي هو سبيل لتحقيق الائتمان.

تساءل أحد الطلاب:

- ماذا تقصد برأس المال الاجتماعي يا أستاذنا؟

- هو أن نتضامن مع كل أهل الخير في بلدنا، ويتم تكوين رؤوس أموال، تكون هي الأساس لمنح الفقراء العاملين ما يحتاجونه من مال.

وأردف البروفسور:

- إن نظرتي واسعة، نريد أن نستقطب كل وطني وشريف، لكي يساهم معنا في مشروعنا.
- وما الأساس الثالث في رؤيتك يا أستاذنا؟

ابتسم البروفسور، ورنا إلى السماء، ثم قال:

- الأساس الثالث ما تعلمناه من رسولنا محمد (صلى الله عليه وسلم): اليد العليا خير من اليد السفلى، فلا نريد متسولا ولا شحاذا في الشوارع، علينا أن نأخذ بأيدي هؤلاء إلى العمل.

والأساس الرابع: علينا أن ندرك أن النساء يمكن أن يصبحن قوة العمل الأساسية في الأسرة، من خلال الأعمال المنزلية التي تدرّ دخلا على الأسرة، مثل الحياكة والمخبوزات وصناعة الأطعمة.

رفع الطالب بشير يده، فأذن له البروفسور بالحديث:

- أستاذي، كلامك رائع، ولكن هذا يحتاج إلى تأسيس بنك، وليس مجرد برنامج مساعدات ترعاه الجامعة، وبذلك نترجم جهودنا إلى عمل مؤسسي، وليس عملا فرديا.

ابتسم البروفسور، وخاطب تلميذه:

- سعيد جدا بمقترحك يا بشير، فـأنتَ وضعت يدك على جوهر فكرتي.

ثم توجه بالحديث إلى أعضاء فريقه:

- أطمئنكم يا طلابي، ويا فريق الخير؛ أن هذا ما سأعمل عليه خلال الأيام القادمة.

****

- إن اقتراحك عجيب يا دكتور محمد؟

هكذا، علّق مدير بنك جاناتا الحكومي في العاصمة البنغالية دكا، على كلام محمد يونس، الذي هزّ رأسه مستفهما، فأوضح مدير البنك:

- أنت تريد يا سعادة البروفسور أن نقدم قروضا لأناس، بدون ضمانات، وبدون فوائد. ما الذي يضمن لنا أن يسدد الفقير القرض، وهو لم يقدّم أي ضمان؟ وماذا يستفيد البنك إذا أعطى قرضا بدون فائدة؟ يمكنك الذهاب إلى جمعية خيرية وليس بنكا حكوميا.

صمت محمد يونس، وأدرك أن الأوراق التي قدّمها لإدارة البنك، وما شرحه لمدير البنك في جلسة طويلة لمدة أكثر من ساعة؛ لم تأتِ بفائدة، فلا يزال مدير البنك يفكر بالعقلية البنكية التقليدية، بأهمية وجود ضمان لأي قرض، ولا بد من فائدة يجنيها البنك.

فضّل البروفيسور أن يتكلم بطريقة أخرى، فقال:

- كما تعلم أيها المدير الفاضل، فإن للبنوك دورا تنمويا في نهضة الوطن، وكل المشاكل المعقدة التي يمرّ بها مجتمعنا البنغالي سببها الفقر، وعدم استغلال الأيدي العاملة بشكل كاف.

- بالفعل لدينا كبنك دور تنموي، ولكن مع من يملك الضمانات والممتلكات.
- هذا يجعل البنك محصورا مع الأغنياء والموسرين فقط.
- يا دكتور، هذه قواعد العمل المصرفي، وأنت أستاذ اقتصاد وتعرف ذلك.

طأطأ البروفسور رأسه، وأيقن أن لا فائدة من النقاش مع مدير البنك، فاستأذن في الانصراف.

غادر البروفسور مكتب مدير البنك وهو حائر، فقد راهن على هذا البنك الحكومي، بأن يدعم برنامجه المقترح للمشروعات متناهية الصغر، التي ستفيد حتما الفقراء في وطنه، وسيكون دافعا للبنوك الأخرى إذا نجحت الفكرة، وستسعى إلى الاستثمار فيها، وتصبح البنوك مصدرا لرأس المال لكل فقير عامل.

اصطدم محمد في مشيّه الوئيد في ردهة البنك بامرأة مسنّة، تطلب منه أن يعينها في ملء استمارتها للحصول على قرض،

نظرا لضعف بصرها. جلس محمد بجانبها، وأمسك الاستمارة، وراح يدوّن المطلوب، حتى وصل إلى بند مكتوب فيه اسم الضامن للقرض، فذكرت له السيدة أنها ضامنة لنفسها، فهي موظفة حكومية سابقة، وتحصل على معاش تقاعدي.

ابتسم البروفسور، فقد حُلّت المشكلة، نظر للسيدة وراح يشكرها كثيرا، فاستغربت، وقالت له:

- أنا الذي أشكرك يا بني، لقد ساعدتني في ملء الاستمارة.
- أختي الكريمة، أنتِ ألهمتِني بفكرة ستفيد آلاف الفقراء في بلدنا.
- كيف يا بنيّ؟
- ستسمعين عنها قريبا، فقط أسألك الدعاء أن يوفقني الله.

تمتمت السيدة داعية الله، فيما عاد البروفسور أدراجه إلى مدير البنك.

****

- سأقوم بتعديل بسيط في مقترحي أيها المدير الطيب.

ابتسم المدير، فقد توقع أنه نجح في إقناع البروفسور بمنطقِه، ولذا، استغرب من عودته ثانية.

- وما هو مقترحك يا دكتور؟
- سيكون مقترحي المقدَّم إليكم نواة لمشروع تجريبي لمساعدة الفقراء على العمل.
- حسنا.
- والمطلوب منكم مبلغ بسيط، يعادل (٣٠٠) دولار، يكون باكورة قرض للفقراء، وأنا الضامن بصفتي أستاذا جامعيا في جامعة حكومية لكل المقترضين من الفقراء.
- مقترح جيّد، أنت ستكون الضامن، وماذا عن الفوائد؟
- يتنازل عنها البنك، ليكون قرضا حسنا، ضمن دوره التنموي في الوطن.

تفكّر المدير مليّا؛ المبلغ المطلوب محدود، وصاحب المشروع أستاذ جامعي مرموق، وكان مستشارا اقتصاديا للحكومة، وعضوا في لجان التخطيط الاقتصادي، فردّ المدير ببطء:

- موافق، بأن تكون أنت الضامن، ويكون القرض بلا فوائد، شريطة أن تملأ أنت الاستمارات بنفسك، وتوقعها بصفتك ضامنا لكل مستفيد.
- لماذا هذا الشرط؟

ابتسم المدير، وهتف به:

- للأسف، غالبية الفقراء في وطننا أمّيّون، لا يقرأون ولا يكتبون، ولذا، أفضّل أن تتولى أنتَ ملء استماراتهم، وتوعيتهم، ومتابعتهم.
- وماذا بعد ذلك؟
- نقيّم التجربة ومدى نجاحها، ونرى ..

****

بعد شهور ستة من بدء البرنامج التجريبي البنكي للمشروعات متناهية الصغر؛ وقف مدير البنك فاتحا ذراعيه

للبروفسور الذي جاء حاملا معه آخر مبلغ من القرض، هتف المدير:

- دعني أشكرك سعادة البروفسور، الكل يتحدث عن نجاح مشروعك، كما أنك استطعت أن تعيد المبالغ المقرضة إلى البنك في مدة وجيزة.
- نحمد الله على ذلك، وأشكرك على تعاونك معنا.

صمت المدير، ثم تمتم:

- بصراحة، لم أتوقع أن ينجح المشروع، وأشفقتُ عليكَ لكونِكَ الضامن لهؤلاء.
- ماذا وراء كلماتك؟
- سؤال واحد: لماذا راهنتَ بوظيفتك وسمعتكَ على مشروع كهذا يا دكتور محمد؟
- لأنني لست تاجرا، وإنما أنا مخطط اقتصادي، يتفطر قلبه حزنا على هؤلاء الجوعى.
- ولماذا نجح برنامجك؟

ابتسم البروفسور، وقال بثقة:

- إن مشروعي بسيط وسهل، فالقـروض شروطها شديدة السهولة من ناحية، وهي فُرصة هؤلاء المستفيدين الوحيدة للخروج من الفقر من ناحية أخرى، كما أن تخلّفهم عن سداد القـروض السهلة يعني فقدانهم فرصة الخروج من مستنقع الفقـر، حيث سيجدون أنفسهم في قبضة التجـار المُرابِين، فهم حريصون على الاستفادة من القرض، وعلى سداده من خلال عملهم.
- حسنا، لقد اتضحت الرؤية، وإذا كنتَ أنت قد قدّمتَ مقترحا لي، فأنا هذه المرة سأقدم مقترحا لك. هل تسمح لي؟

استغرب محمد يونس من حديث مدير البنك، وأحنى رأسه موافقا، وأنصتَ له:

- سنقوم بعمل مصرف فرعي من البنك، ونطلق عليه اسم "مصرف غرامين"، أي بنك القرية، وتتولى أنت إدارته بنفسك، وكل مهمتنا أننا سنعطيك تمويلا محدودا.

كان المقترح مدهشا، فهو لب تفكير البروفسور، بأن تصبح فكرته فكرة مؤسسية، بنكية، رسمية، وليست مساعدات فردية، قد تنشط فترة وتفتر أخرى، إنه طريق جديد شاء الله أن يدبره.

****

العام ١٩٧٦، يتم تدشين بنك غرامين الفرعي، ونشاهد البروفسور مع طلابه، يتخذون مبنى صغيرا تابعا لبنك جاناتا. كانت الأوراق منسقة، والاستمارات جاهزة، والمال المتوافر يكفي لبدء حملة متصلة بين فقراء القرى، الذين وجدوا مندوبي البنك وهم طلاب البروفسور يجوبون قراهم، معهم الأموال، وملفات التقديم، ويشرفون على المشروعات الصغيرة التي تبدأ في البيوت، والأكواخ، والحقول، والزرائب.

النشاط الاقتصادي يدب في أنحاء القرى، وكانت المفاجأة التي حملها الطلاب؛ قد لخّصها شعار البنك المرفوع وهو: "خذ قرضا، واعمل، وسدد قرضك كل يوم أو كل أسبوع، أو كل شهر".

يتفاجأ المقترِضون أن مندوبي البنك يأخذون أقساط القرض بما يتوافر مع هؤلاء المقترضين من مال، ولو كان أقل القليل، ولأن المقترضين بسطاء، وقد لا يحصون عدد الأقساط التي سددوها؛ فإنهم يتفاجأون ثانية، بصك يأتي إليهم بعد شهور قليلة، مكتوب فيه: "نبشرك، إن القرض قد انتهى، وصار مشروعك الصغير ملكا لك، ويمكنك إذا توافر معك المزيد من الربح أن تكون مساهما في البنك، بأن تشتري أسهما من البنك".

بعد ذلك، يشرح المندوبون فكرة الأسهم، بأن البنك بدأ يدخل في شراكات تجارية وصناعية مع مؤسسات عديدة، تدرّ عليه الربح، فتسابق الناس لشراء الأسهم، وراح بنك القرية يكبر، ويتعاظم، ويكثر المستفيدون منه، وتتكاثر الأرباح.

****

– ماذا عن الشحاذين يا دكتور محمد؟

كان سؤالا مباشرا من أحد الطلاب، وقد أراد أن يذكّر أستاذه بهؤلاء الذين يفترشون الأرصفة، مع أسرهم، ولا يعرفون إلا ذل المسألة.

كان البروفسور منكبا على بعض الملفات المتعلقة بفرع جديد للبنك، يرغب في افتتاحه بإحدى القرى، إلا أن سؤال طالبه جعله يطوي الملفات، ويُخرِج ورقة من جيبه، ناولها للطالب السائل، وانتظر أن يقرأها. أمسك الطالب بالورقة، كانت أفكارا أولية، مخطوطة فيها:

"إن بنك غرامين سيمنح بطاقة هوية (كارنيها) لكل شحاذ، كي تكون سندا له من الشرطة، فلا تقبض عليه بأنه متسول. وسيسعى البنك إلى تعليم كل شحاذ عملا يدرّ عليه دخلا، وسيعطيه سكنا بسيطا، وسيأخذ أولاده إلى المدارس، وسيكون هناك تأمين صحي وحياتي لكل شحاذ".

هتف الطالب سعيدا:

- إنها أفكار مبهرة يا أستاذي، ولكن كيف نحققها ومواردنا المالية في البنك محدودة؟

وقف البروفسور، وأخذ الورقة من يد الطالب، وهو يقول:

- ولهذا تأخرت قليلا، حتى أدبر برنامج معالجة التسول في بلادنا.
- وماذا فعلت أستاذنا؟
- ببساطة، التجربة تقوى، وهناك داعمون من الشركات والمؤسسات ورجال الأعمال، وبدعمهم المالي، سنقوم بما هو واجب، لن يبقى هناك متسول واحد في قرى بنغلاديش.. إن سياستنا بسيطة لكن مختلفة لا ينبغي التخلي عن أحد، سنذهب من منزل الى منزل، في المناطق النائية، التي يصعب الوصول إليها؛ لنبحث عن قرب حال كل أسرة فقيرة.

سكت البروفيسور، ثم قال بثقة:

إنني أحلم بهذا اليوم، عندما لا يكون هناك شحاذ أو فقير في وطني، بل إنني أراه أمامي الآن، وقد يأتي بعد عشر سنين أو عشرين أو ثلاثين.

****

(٤)

سمع البروفسور زوجته تنادي عليه، كان قد عاد منهكا من عمله اليومي في البنك، فأجابها أنه سيستريح قليلا على الفراش، فلديه لقاءات مهمة في مساء اليوم، مع عدد من الداعمين.

- تعالَ يا محمد، واستمع، فهذا لقاء أهم.

متثاقلا مشى البروفسور إلى حيث تجلس زوجته في صالة شقته الصغيرة، كانت تشاهد التلفاز، الذي يعرض مقابلة مع إحدى السيدات القرويات، وخلفها شعار بنك غرامين.

- هل تعرف هذه المرأة يا محمد؟
- لا، لم أشاهدها من قبل.
- استمع لما ستقوله، فالمقابلة لا تزال في بدايتها.

تصلّبت عينا البروفسور على هيئة المرأة التي تتحدث، وقد أصرّت أن يكون شعار البنك على صدرها، وأيضا خلفها.

ملابسها جيدة، وتبدو عليها آثار النعمة، وبجانبها اثنان من أبنائها.

" أنا بانيسا، لا تنظروا لي الآن، لقد تزوجتُ منذ عشر سنوات، وعشت جحيما في حياتي، فزوجي فقير، فشلَ في الحصول على عمل، لأنه لا يجيد حرفة ما، وتراكمت علينا الديون، وعجزنا عن إطعام أطفالنا. سمعتُ من النسوة في قريتي عن بنك غرامين، لم أصدّق نفسي، عندما وجدت شابا يستقبلني في أحد فروع البنك، ويتعرف على مشكلتي. أعطاني ماء، وعصيرا، ومالا، لأشتري به طعاما لأطفالي الجوعى ولزوجي المسكين. قالوا لي: لابد أن تقومي بعمل مشروع. قلتُ: إن زوجي لا يجيد حرفة. قالوا لي: فكّري ولو في عمل بسيط، ونحن معك. غادرتُ البنك، وفي اليوم التالي، ذهبتُ إليهم، بعدما فكّرتُ جيدا، وكان زوجي معي، وطلبتُ ألفي تاكا (ثلاثين دولارا)، وأخبرتهم أن زوجي يمكن أن يعمل سائقا على عربة ريشكو الخشبية الصغيرة، لنقل الناس والبضائع. توقعتُ أن يرفضوا، ولكنهم وافقوا، وملأوا الاستمارة سريعا. وحضرَ معي موظف، سار معي إلى نجّار

يصنع عربات الريشكو، وأعطاه جزءا من المبلغ عربونا لصنع العربة، وبعد أيام جاءني إلى المنزل ومعه العربة الجديدة، وقدّمها لزوجي. لا تعرفون كيف تغيّرت حياتنا، لقد كان زوجي المعدم في غاية السعادة، وهو يدخل علينا كل يوم ومعه مال يكفي طعامنا، بل وندخرُ منه. أما الموظف، فكان يطرق بابنا كل أسبوع، ويأخذ جزءا من مدخراتنا، واكتشفنا أننا خلال شهور قد سددنا القرض، بدون أية فوائد مالية، وصارت العربة ملكا لزوجي، وتجمّع المال لدينا. فقررت العمل أنا أيضا، بتربية الدجاج في البيت، آخذ منه البيض لأولادي، والباقي أبيعه في السوق، كان كفاحنا جميلا.

تسألها المذيعة:

- وماذا فعلتِ بعد ذلك؟
- أقول الحمد لله، لدينا الآن (٢٧) عربة ريشكو، ومزرعة دواجن بها ثلاثة آلاف دجاجة، وبركة سمك، نربي فيها الأسماك، ونبيعها. وصرنا من أثرياء القرية.

- أنت نشيطة وذكية، ماذا عن الأخريات؟
- صديقتي زليخة تعيش على بيع حليب بقرة اشترتها بعد الحصول على قرض من بنك غرامين، وجارتي ساميران افتتحت متجرا صغيرا بالقرض، وكل واحدة منهما بعد سنوات صار لها منزل، وعندهما ماشية، وأرض تزرعان فيها الأرز والخضراوات.

****

في العام ٢٠٠٦، كان البروفسور يجلس في مبنى بنك غرامين، الذي أضحى بنكا مستقلا، بعدما أعاد هيكلته، واستفاد من منح مالية حكومية، ودولية، وكذلك دعما سخيا من مؤسسات كثيرة، فدخل في شراكة مع عشر شركات عملاقة في بنغلاديش في مجال الهواتف المحمولة، والبرمجيات، والمزارع السمكية، والحيوانية، والأراضي الزراعية، ووصل عدد المقترضين من البنك سبعة ملايين وأربعمئة ألف مُقترِض، ٩٧٪ منهم من النساء وجميعهن في بنغلاديش، وقد أخذوا ما مجموعُه ستة مليارات دولار أميركي، وأربعمئة

مليون دولار، وبلغت القروض السنوية حوالي ٨٠٠ مليون دولار، بمتوسط ١٣٠ دولارا للقرض الواحد. وهناك (٢٦٠٠) فرع للبنك في جميع أنحاء بنغلاديش، ناهيك عن (٤٠) فرعا للبنك في أنحاء العالم، تحت اسم بنك غرامين الدولي، وتم تعميم النموذج عالميا، لتستفيد منه الدول الفقيرة.

****

عندما تسلم البروفسور محمد يونس جائزة نوبل، وخرج من قاعة الاحتفالات، سأله أحد الصحافيين، وبجانبه مصوران للفيديو والفوتوغراف:

- سعادة البروفسور، لقد وصلتَ إلى العالمية وصرت مشهورا في العالم كله. ما تعليقك؟
- أشكر الله أولا، وأشكركَ يا بني، لقد حصلتُ طيلة مسيرتي على أكثر من (١١٣) جائزة دولية، و(٥٠) دكتوراه فخرية، و(١٥) تكريما خاصا من مختلف دول العالم.
- وماذا ستفعل بالمبلغ الذي حصلتَ عليه من جائزة نوبل؟

- سأستخدم جزءا من نصيبي من الجائزة التي تبلغ مليون وأربعمئة ألف دولار؛ لإنشاء شركة لتقديم تكلفة منخفضة للمواد الغذائية للفقراء، في حين أن بقية الجائزة ستذهب لإقامة مستشفى العيون للفقراء في بنغلاديش، وعندي مشروعي جديد أسّميه "غرامين دانون فورس"، وسيساعد هذا المشروع على انتشال بنغلادش من الفقر تماما بحلول عام ٢٠١٥، وآمل أن يتحقق، حتى لا يكون هناك شحاذ في بلدي.

هتف الصحافي:

- أنت مبهرٌ، لقد نلتَ الخلود، ماذا يمكنك أن تقول بعد كل هذا الإنجاز؟

دمعات ترقرقت في عيني البروفسور، وهو يقول:

- أقول: مازلتُ على العهد يا أمي، فلم أكسر خاطر مسكين سألني المساعدة يوما.

الاسم : أ. د. مصطفى عطية جمعة

أستاذ الأدب العربي والبلاغة والنقد الأدبي،

وباحث في الإسلاميات والحضارة، وقاص وروائي ومسرحي.

الأعمال المنشورة:

أولا : الدراسات الأدبية والنقدية :

١) دلالة الزمن في السرد الروائي، نقد، جائزة النقد الأدبي، الشارقة، ٢٠٠١.

٢) أشكال السرد في القرن الرابع الهجري، نقد، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٦

٣) ما بعد الحداثة في الرواية العربية الجديدة (الذات، الوطن، الهوية)، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠١٠، وكالة الصحافة العربية، القاهرة،ط٢، ٢٠٢٣.

٤) الرؤية والأداة: في جماليات المكان والزمان والتأويل، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٣، وصدرت طبعته الأولى بعنوان اللحمة والسداة، نقد أدبي، سندباد للنشر، القاهرة، ٢٠١٠.

٥) شعرية الفضاء الإلكتروني في ضوء ما بعد الحداثة، نقد أدبي، دار شمس، القاهرة، ٢٠١٦.

٦) الظلال والأصداء، نقد أدبي، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠١٥م

٧) الوعي والسرد، دار النسيم للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٦م.

٨) السرد في التراث العربي (رؤية معرفية جمالية)، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، ٢٠١٧م، ووكالة الصحافة العربية ناشرون، القاهرة، ط٢، ٢٠٢٣.

٩) القرن المحلق (الرواية الإفريقية وأدب ما بعد الاستعمار)، منشورات جائزة الطيب صالح العالمية، الخرطوم، ٢٠١٧م، وكالة الصحافة العربية، القاهرة، (ط٢)، ٢٠٢٣.

١٠) عضو فريق التأليف في كتاب: التأريخ واشتغال الذاكرة في الرواية العربية، ببحث عنوانه: تمثيل التاريخ العربي وإشكالات التأريخ في الرواية التاريخية، منشورات كتارا للرواية العربية، قطر، العام ٢٠١٩م.

١١) التحيز في المسرح العربي: قراءة في الجذور والنشأة والنصوص والتجارب، في كتاب محكم جماعي بالاشتراك: تلغيم الفن: المسرح بوصفه ساحة للتحيزات، منشورات دار نور حوران، دمشق، سورية، إبريل ٢٠١٩م.

١٢) الفصحى والعامية والإبداع الشعبي، دار شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٩م.

١٣) أصداء ما بعد الحداثة: في الشعرية والفن والتاريخ، دار شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٩م.

١٤) شرنقة التحيز الفكري: أنماط وتجليات ودراسات، دار شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٩م.

١٥) البنية والأسلوب: دراسات نقدية، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٢٠

١٦) المعجمية العربية: قراءة حضارية في ضوء الأنثروبوجيا الثقافية. دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٣.

١٧) الرواية العربية: قضايا الإنسان والهوية: إشكالية الريف والمدينة نموذجا، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.

ثانيا: الإسلاميات والحضارة:

١٨) هيكل سليمان (المسجد الأقصى وأكذوبة الهيكل)، ط١، دار الفاروق للنشر، القاهرة، ٢٠٠٨م. ووكالة الصحافة العربية ناشرون، القاهرة، ط٢، ٢٠٢٣.

١٩) فلسفة الرحمة في شخصية الرسول (ص)، ط٢، وكالة الصحافة العربية ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٣، وصدرت الطبعة الأولى بعنوان: الرحمة المهداة، خلق الرحمة في شخصية الرسول (ص)، إسلاميات، مركز الإعلام العربي، القاهرة، ٢٠١١ م،

٢٠) الحوار في السيرة النبوية، إسلاميات، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠١٥م

٢١) الإسلام والتنمية المستدامة، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠١٦م.

٢٢) منهج الرسول (صلى الله عليه وسلم) في إدارة الأزمات، إسلاميات، دار شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠١٨م.

٢٣) وسطية الإسلام في حياتنا الفكرية: قضايا التجديد والثقافة والمعاصرة، إسلاميات، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٢٠.

٢٤) الحكم الراشد: رؤية إسلامية حضارية، دار شمس للنشر والمعلومات، إسلاميات، القاهرة، ٢٠٢٠.

٢٥) صورة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الوجدان الغربي: أبعاد التجني، براهين التفنيد، الكتاب الفائز بالجائزة الأولى في المسابقة الدولية بمنصة أريد البحثية الدولية ARID Platform، ماليزيا، ديسمبر ٢٠٢٠.

٢٦) المثاقفة والتواصل: حوار الذات وحوار الحضارات، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٢.

٢٧) الطفولة والهوية والتغريب: إشكاليات النسوية والجندرية، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٢.

٢٨) أسئلة الحضارة والنهضة: إضاءة على الفكر التنويري والحداثة الإسلامية، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٣.

٢٩) التطبيع الصهيوني العربي شفرات الخداع والتدليس، منشورات مركز الشرق للأبحاث والثقافة (ECR)، ٢٠٢٣.

ثالثا: الإبداعات الأدبية:

٣٠) وجوه للحياة، مجموعة قصصية، نصوص ٩٠، القاهرة، ١٩٩٧م

٣١) نثيرات الذاكرة، الجائزة الأولى في الرواية، دار سعاد الصباح، القاهرة / الكويت، ١٩٩٩م.

٣٢) شرنقة الحلم الأصفر، رواية، جائزة الرواية عن نادي القصة، بالقاهرة، ٢٠٠٢، نشر: مركز الحضارة العربية،٢٠٠٣م.

٣٣) طفح القيح، مجموعة قصصية، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٥م.

٣٤) أمطار رمادية، مسرحية، مركز الحضارة العربية بالقاهرة، ٢٠٠٧م.

٣٥) نتوءات قوس قزح، رواية، سندباد للنشر، القاهرة، ٢٠١٠.
٣٦) مقيم شعائر النظام، مسرحيات، دار الأدهم للنشر، القاهرة، ٢٠١٢م.
٣٧) قطر الندى، مجموعة قصصية، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠١٣م.
٣٨) على متن محطة فضائية، رواية للأطفال، منشورات مكتب التربية لدول الخليج العربي، الرياض، ٢٠١٢م.
٣٩) سفينة العطش، مسرحية للأطفال، منشورات مكتب التربية لدول الخليج العربي، الرياض، ٢٠١٢م.
٤٠) أصدقاء في عالم الفضاء، رواية للفتيان، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٣، ط٢، وصدرت الطبعة الأولى بعنوان: رواد فضاء الغد، أطفال، منتدى الأدب الإسلامي، الكويت، ٢٠١٤م.
٤١) لكل جواب قصة، مسرحيات للأطفال، منتدى الأدب الإسلامي، الكويت، ٢٠١٤م.
٤٢) سوق الكلام، مسرحيات، دار النسيم للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٧م.

٤٣) حدث مألوف، قصص قصيرة جدا، دار شمس للطبع والنشر، القاهرة، ٢٠٢٣.

٤٤) جزيرة الفئران، مسرحيات للأطفال واليافعين، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٣.

٤٥) الحسن بن علي، رواية للأطفال واليافعين، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٣.

٤٦) البرتقالة في الزجاجة، مجموعة قصصية للأطفال واليافعين، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٣.

٤٧) صندوق الألعاب، مجموعة قصصية للأطفال، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٣.

٤٨) الفقر مقتولا: قصة البروفيسور محمد يونس وحربه ضد الفقر في بلاده، قصة للفتيان، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.

٤٩) النسيم والهجير، رواية، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.

٥٠) رحيق الألم: قصة حياة "لي ميونغ باك" رئيس كوريا الجنوبية، رواية للفتيان، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٢٤.

٥١) المتسابقون للفردوس، مسرحيات للفتيان، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.

٥٢) كنتُ ملحدًا: سيرة العالم الأمريكي جفري لانغ، قصة للفتيان، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.

❊❊ ❊❊

الفقر مقتولاً

عندما تسلم البروفسور محمد يونس جائزة نوبل، ترقرقت دمعات في عينيه، وهو يتمتم:

في هذه اللحظة، أقول: مازلتُ على العهد يا أمي، فلم أكسر خاطر مسكين طلب مساعدتي يوما.